

الصهيونية الأدبية والاستعمار الغربي لفلسطين *Literary Zionism and Western Colonization of Palestine*

قرساس إبراهيم^{1*} ، بن بوعزيز وحيد².

¹ جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، brahim.guerssas@univ-alger2.dz

² جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، ouahid.benbouaziz@univ-alger2.dz

تاريخ القبول: 2025/02/10

تاريخ الاستلام: 2024/01/08

ملخص:

نُظر لليهود داخل المجتمعات الغربية كذوات دخيلة، هذه النظرة نابعة من مخيلة سردية إنجيلية كبرى، وُظفت لصالح أدبيات سياسية وثقافية واجتماعية، سخرت لخدمة رغبات الرجل الأبيض، فتجلت عبر تنميطات عاكسة للمخيل الديني والأدبي للذات الغربية، ملقية بظلالها على الإنتاج الأدبي، فما أنتج من نصوص لم تكن سوى رجوع صدى لما يدور على المستوى الاجتماعي، باعتبار الجماعات اليهودية جماعة وظيفية بتعبير (المسيري). إن الذات اليهودية الصهيونية صناعة إمبريالية، وتذويت غربي بروتستانتية، هدفه تخفيف الضغط عن المجتمع الغربي، بالإضافة إلى الاستفادة من وضعه هناك في قلب الأمة العربية كهدية سامة لشعوبها، لذلك كان للدور السياسي أثر في تحريك الدور الثقافي لتخليص المجتمع الغربي من عبء التواجد اليهودي. الكلمات المفتاحية: الإمبريالية؛ البروتستانتية؛ الجماعات الوظيفية؛ الصهيونية؛ اليهود.

Abstract:

Jews were perceived as outsiders in Western societies, a perception rooted in a significant evangelical narrative. This narrative found its way into political, cultural, and social literature, serving the interests of the white man and perpetuating stereotypes that reflected the religious and literary imagination of the Western identity. Consequently, these stereotypes influenced literary production, echoing societal biases that viewed Jewish groups as functional units, as observed by Al-Messiri.

The construction of the Zionist Jewish identity occurred within an imperialist framework, shaped by Western Protestant ideologies. Its primary objective was to ease pressure within Western society while capitalizing on its position within the heart of the Arab nation, presenting itself as a problematic gift to its people. This political role not only bolstered cultural shifts but also aimed to diminish the perceived burden of the Jewish presence within Western society.

Keywords: Jews; Zionism; functional groups; Protestantism; imperialism.

1. مقدمة

من البديهي القول أنّ كلّ الحركات الاستيطانية هي حركات إحلاليّة، تهدف إلى الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها الأصليين، وهذا ديدنها عبر التاريخ، والاستعمار الاستيطاني الإحلالي يُطلق على هذا النوع من الاستعمار حين يقوم العنصر السكاني الوافد (عادةً الأبيض) بالتخلص من السكان الأصليين، إمّا عن طريق الطرد أو عن طريق الإبادة حتى يُفريغ الأرض منهم ويحلّ هو محلّهم، فكان طرد أو إبادة السكان الأصليين وإحلال عنصر جديد محلّ العنصر القديم أمراً لا مفر منه، فما فعله الرّجل الأبيض بالسكان الأصليين في أمريكا الشمالية وكندا أستراليا لا يجهله أحد، وبالتالي فما تفعله الحركة الصهيونية في فلسطين ليس بالأمر المستغرب، مادامت امتدادا للفكر الغربي وخطاباته الاستعمارية، لكنّ المتنبّع لتاريخ المسألة اليهودية في أوروبا، يصل به بحثه إلى استنتاج يكاد يطابق الواقع، مفاده أنّ الفكر الصهيوني قد نشأ أول ما نشأ في أوساط معادية لليهود، لأسباب اقتصادية واجتماعية أكثر منها دينية، وتحديد أكثر دقّة فإنّ الصهيونية ظهرت في بداياتها، بين أوساط النّخب المتحمّكة في السياسة وفي رأس المال بما فيها العنصر أو المكوّن اليهودي داخل تلك النّخب في بلدان غرب أوروبا، والتي أبدت انزعاجها من موجات هجرة الجماعات اليهودية الكثيفة إليها، واتّخاذها مستقراً وموطناً، قادمة من شرق أوروبا المتخلف مقارنةً بغربها، بعد أن أفرز تعرّ تحديث اليهود وإدماجهم في شرق القارة خلال القرن التاسع عشر، اتّجاهات شعبية ونخبوية معادية لليهود؛ بسبب أدوار وظيفية اجتماعية واقتصادية معيّنة تولوا مسئوليتها، بالإضافة إلى مقدّمات يهودية تبريرية لإضفاء لمسة إنسانية على المسألة اليهودية، كما أنّ هذه الإضافات لها مقدرة تعبوية في إقناع اليهود بأنّ الحلّ النهائي المقترح لإنهاء تشتّهم يصبّ في مصلحة اليهود واليهودية، كما أنّ نهجهم الإحلالي هذا لا يرجع في أصوله إلى كتبهم المقدّسة فقط، وإنّما هو سلوك تنتهجه كل الحركات الاستيطانية التوسعية، فحركات وجودهم ككتلة سكانية غربية استولت على الأرض وطردت سكانها، هي التي تفرض عليهم هذا السلوك العنصري العدواني، فالمنظّرون الأوائل لفكرة الصهيونية تتلمذوا على أيدي مثقفين ومفكرين غربيين.

لقد وظّفت الحركة الصهيونية كلّ الوسائل المتاحة للانتصار لفكرتها وإقناع العالم بها، ومن أهمّ هذه الوسائل الأدب الذي نشط في الدفاع عن الصهيونية ونظّر لها باحترام كبير، مخالفاً بذلك الرّسالة الإنسانية والأخلاقية التي يجب أن يحملها ويدافع عنها، فالمعروف عن رسالة الأدب أنّها تروم استئصال بقايا الوحشية والعنف والقسوة من السلوك البشري، وتنتصر لكلّ القضايا الإنسانية من خلال نشر قيم الجمال والتسامح، وبند كل نوازع العنف والعنصرية والهيمنة، إلّا أنّ الأدب الصهيوني حاد عن هذا المسار وحمل في مضامينه نزعات عنصرية، ودعوات عدوانية تغذي كراهية الآخر وتلغيه، بل وتدعو إلى قتله واغتصاب أرضه وأخذ ممتلكاته، ممّا يجعله أدبا استعماريا توسعيا بامتياز.

أولاً: الوطن الجديد بين العقلانية الإمبريالية والعاطفة الدينية :

إنّ الحركة الصهيونية مدينة للإمبريالية الغربية بتحوّلها من مجرد فكرة، إلى منظمة مهيمنة على جلّ يهود العالم، ثمّ إلى دولة ذات قوّة عسكرية ضخمة لاحقاً، وهي مدينة كذلك للمناخ الحضاري وللأفكار الاسترجاعية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن السادس عشر، فقبل بروز فكرة الشعب اليهودي على المسرح الدوّلي بمعناها السياسي، وفكرة الدّولة الجامعة لكلّ يهود العالم ككيان سياسي يهدف إلى حلّ المسألة اليهودية، برز تيار من الصهيونية المسيحية، عرف بحركة الاسترجاع، والتي كانت " تطالب بإعادة اليهود إلى أرضهم الأم، حتّى يتسنى الإسراع في هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية، فعودة اليهود وهدايتهم وتنصيرهم، كانت تعدّ شرطاً أساسياً لحلول العصر الألفي السعيد (الألف عام التي سيحكم فيها المسيح المخلص

العالم، ويسود فيها السلام والطمأنينة " (المسيري، 1982)، هذه الفكرة الدّينية ليست وليدة الصّدف، وإنّما لها علاقة بالثّورة الاجتماعية والاقتصادية، وحالة التّغيير في نظرة الأوربيين إلى العالم الآخر، فهذه الثّورة الجديدة التي اجتاحت أوروبا لم تقتصر على جانب دون آخر، بل كانت انقلاباً حضارياً كاملاً، فهي لم تخلق علماً وفناً وتكنولوجيا جديدة فحسب، بل وأنتجت مجتمعا جديداً وسياسة توسّعية استعمارية إمبريالية جديدة تماماً، لقد ولّد هذا الانقلاب الصّناعي تغييراً كبيراً في بنية المجتمع، بتحويله من الإقطاع إلى البورجوازية، التي تقوم على التّنافس وحبّ التملّك والتوسّع، ولقد أعطى هذا التّحوّل إضافة إلى سيادة الوعي القومي، إشارة الانطلاق في سباق مسعور نحو استعمار البلاد الواقعة وراء البحار في القارتين الآسيوية والإفريقية، ورافق هذا الزخم الاستعماري اهتمام زائد بالأفكار الدّينية واستخدامها كوسيلة لتسويق المطامع الاستعمارية الأوروبية، فمعظم الحملات الإمبريالية صاحبها حملات دينية تبشيرية.

هذه الثّورة الصّناعية والاكتشافات العلمية وسيادة المدّ القومي الذي عرفته أوروبا، صاحبه انفجار سكاني نتيجة تحسّن ظروف المعيشة، وارتقاء مستوى الخدمات، فأُستأثرت أوروبا متخمة بفائض بشري لم تعرف له مثيلاً من قبل، ممّا فرض على ساستها ومثقفها التّفكير في حلّ لتصريف هذا الفائض، الذي بات يشكّل عبئاً على اقتصادها، فكانت المستعمرات الجديدة التي بنيت على أنقاض وأشلاء السّكان الأصليين، في القارّات المُستعمَرة، هي الحلّ الأنسب لاستيعابه، فتوجّهت الأنظار إليها، ولتحقيق ذلك تعرّض أهل البلاد الأصليين إلى إبادات رهيبة، وصلت ببعضهم إلى حدّ الانقراض التّام، وما كان لهذا التّوطين أن ينجح ويحقّق نتائج، إلّا من خلال انتزاع الأراضي الصّالحة من أهلها وتمليكها للوافدين الجدد، مع الحرص على نفي هؤلاء الأهالي إلى الأطراف غير الصّالحة للسّكن أو الزّراعة، باستعمال وسائل التّرهيب من تقتيل وتهجير قسري فعلى سبيل المثال يمكن حلّ مشكلة تكدّس السّلع عن طريق السّوق الهندية، ويمكن أيضاً حلّ مشكلة المواد الخام اللّازمة للمصانع البريطانية عن طريق تحويل مصر إلى مزرعة قطن، أمّا مشكلة زيادة السّكان، أو الفائض البشري كما كانوا يطلقون عليه، وجزء كبير منه كان من اليهود، فيمكن حلّها بطريقة مماثلة، أي عن طريق تصديرها، وإذا كان الاستعمار التّقليدي هو الحلّ المطروح لمشكلة المواد الخام وتكدّس السّلع، فالاستعمار الاستيطاني هو الجواب على مشكلة تكدّس السّكان " (المسيري، 1982، الصفحات 111-112).

وعلى خطى الإمبريالية الغربيّة، بدأت الحركة الصّهيونية تتخذ شكلاً متميّزاً في أوائل القرن السّادس عشر قائمة على " نظرة محدّدة لليهود ظهرت في أوروبا (خصوصاً في الأوساط البروتستانتية في إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن السّادس عشر)، وترى أنّ اليهود ليسوا جزءاً عضويّاً من التّشكيل الحضاري الغربي، لهم ما لبقيّة المواطنين وعليهم ما عليهم، وإنّما تنظر إليهم باعتبارهم شعباً عضويّاً مختاراً، وطنه فلسطين ولذا يجب أن يهجّر إليه، وقد استمرّ هذا التّيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتّى بعد أن خمد الحماس الدّيني الذي صاحب حركة الإصلاح الدّيني، ويطلق على هذه النزعة اسم (الصّهيونية المسيحية)، وهي تمارس في الولايات المتّحدة الآن بعثاً جديداً وخصوصاً في بعض الأوساط البروتستانتية الأصولية المتطرّفة " (المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصّهيونية ج6، 1999)، إنّ الرّؤية الاستراتيجية البروتستانتية في حقيقتها رؤية معادية لليهود، فالهدف من استرجاع اليهود هو هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية وإعادتهم إلى أرضهم الأم (فلسطين)، باعتبار تنفيذ هذا المسعى يعدّ شرطاً أساسياً لحلّول العصر الألفي بحسب المعتقد البروتستانت (الألف عام التي سيحكم فيها المسيح المخلّص العالم، ويسود فيها السلام والطمأنينة)، إلّا أنّ الاستجابة اليهودية للفكر الاسترجاعي لم تلق التّرحيب من قبل العنصر اليهودي لزمن طويل، وظلّت الأصوات الدّاعية لإنهاء الشّتات والنّفي لا تحظى بالدّعم اليهودي " ولكن مع انتصاف القرن التّاسع عشر، ومع تفاقم المسألة اليهودية في شرق أوروبا، ومع انتشار الفكر الإمبريالي، بدأ بعض المفكرين اليهود في الاستجابة بطريقة أكثر إيجابية للصّياغة الصّهيونية غير اليهودية " (المسيري، البروتوكولات واليهودية والصّهيونية، 2003).

كانت المبادئ البروتستانتية التي وضعتها حركة الإصلاح الدّيني في القرن السّادس عشر، مغايرة تماماً للمبادئ الكاثوليكية، وعلى رأسها إقامة الحقيقة الدّينية على أساس الفهم الشّخصي، دون فرض قيود على تفسيرات الكتاب

المقدس، كما أثار اهتمامهم بالأدب التوراتي وتفسيره، اهتماما عاما باليهود وعودتهم إلى فلسطين، فكان كلُّ بروتستانت حُرٍّ في دراسة وفهم الكتاب المقدس، وبات التأويل الحرفي للنص المقدس هو الأسلوب الجديد المتبع في التفسير، فانقلبت فلسطين أرضا يهودية في الفكر المسيحي لأوروبا البروتستانتية، وانقلب اليهود بحسب هذا الفهم، فصاروا هم الفلسطينيين الغرباء والمشتتين في أوروبا، والذين سيعادون مرة أخرى إلى أرض أجدادهم، أرض فلسطين عندما يحين الوقت المناسب، تمهيدا للعودة الثانية للمسيح، لإقامة حياة مستقرة ملؤها السلام والرفاهية، وتحقيق ألفية سعيدة على الأرض، وانطلقت بذلك البروتستانتية في كتابة سجلٍ جديدٍ للحركة الصهيونية.

ومن أوائل القادة والزعماء الأوربيين الكبار الذين وجهوا نداء لليهود بالعودة إلى أرض فلسطين، الإمبراطور الفرنسي (نابليون بونابارت)، من خلال مطالبته إعلان اليهود ولاءهم للدولة الفرنسية ومساعدتها في حروبها، وإن هم فعلوا ذلك فإن الدولة الفرنسية ستقدم لهم الدعم اللازم، الذي يضمن لهم حق العودة إلى أرض أجدادهم بحسب زعمه، وعلى الرغم من أنّ وضع اليهود في فرنسا كان أفضل حالا عن باقي دول أوروبا، إلا أنّ نابليون على غرار غيره من القادة والمفكرين الأوربيين كان ينظر إلى الجماعات اليهودية، باعتبارهم جماعة وظيفية يمكن الاستفادة من خدماتها "فإخراج اليهود من فرنسا وتوطينهم في فلسطين فيه حلٌّ للمسألة اليهودية في فرنسا (والتي كانت قد بدأت في التفاقم)، وتحقيق لمشاريعه الإمبراطورية، أي أنّ نابليون كان يهدف إلى ضرب عصفورين بحجر: تخليص فرنسا من اليهود، وتوظيفهم في خدمة مشاريعه وتحويلهم إلى عملاء له" (المسيحي، البروتوكولات واليهودية والصهيونية، 2003، صفحة 95)، فالهدف الذي كان يسعى من ورائه نابليون هو حلم التوسّع وضَمّ المزيد من الأراضي والدّول إلى الإمبراطورية الفرنسية التي كان يعمل على جعلها سيّدة العالم، هذا المسعى هو حلم كلّ الإمبراطوريات التوسّعية منذ قديم الأزل، فالإمبراطوريات الرومانية والفارسية والبيزنطية...، وحتى في تاريخنا المعاصر الولايات المتحدة الأمريكية، كلّهم يجمعهم هدف واحد، وهو السيطرة على العالم. فالعنف الصهيوني المسلّط على الشعب الفلسطيني، يمتدّ بجذوره إلى الموروث العنصري للحركة الاستعمارية الغربية، التي حوّلت العالم إلى مجال حيوي خالٍ، وظفّته لخدمة مصالح الرجل الأبيض، صاحب القوة والأحقية والمتحكم في زمام الأمور، والحركة الصهيونية ما هي إلا امتداد لهذا الغرب المشبّع بأفكار التوسّع والاستغلال والبقاء للأقوى، فعنفهم الذي يتبدّى للعيان، والموجه ضد أصحاب الأرض العزل، ما هو إلا إفراز طبيعي للحضارة الإمبريالية التي نشأوا فيها وتشبّعوا بأفكارها.

إنّ اصطباغ الحركة الصهيونية بالعنف واتّخاذها منهجا للوجود، مرتبط بمحاولة تحديث الشخصية اليهودية وتطبيعها وعلمتها، ومناهضة فكرة انتظار المسيح المخلص الذي ورد ذكره في كتبهم المقدسة، بأنّه هو من سيقودهم إلى أرض الميعاد، فهي تقوم على رفض فكرة الاتكالية هذه، محاولة بكل الطرق غرس روح الاندفاع والتّمرد، وأخذ زمام المبادرة لتجسيد صورة الوطن المغروس في المخيلة، وتنزيله على أرض الواقع "إنّ مقاومة القدر لا تكفي، يجب علينا أن نتغلّب على هذا القدر حتّى يصبح ملك أيدينا، هذه هي عقيدة الثورة اليهودية، ليس فقط عدم الاستسلام للمنفى، ولكن إنهاء هذا المنفى" (صايغ، دت)، فالقبول بالمنفى إلى الأبد يعتبر اتكالية وكسل بحسب الخطاب الصهيوني، فاليهودي عاش محروما من وطنه، مقتلعا ومبعثرا في أنحاء العالم، وقد آن أوان عودته، فمن الواجب أن ينقلب على كلّ الأفكار والمعتقدات التي تقف في طريقه وتعرقل مساره وتدعوه إلى انتظار عودة المسيح المخلص، حتّى وإن كان مصدرها كتبهم المقدسة "إنّ تحمّلنا واستمرارنا في العيش في بلاد المنفى رغم كلّ المصائب لا يكفي، علينا أن نخلق بجهدنا الخاص الظروف الضرورية لحياتنا في المستقبل كشعب حرٍّ مستقل" (صايغ، دت، صفحة 477).

ولقد امتدّ أثر هذه الأفكار الجديدة فطال جميع المجالات، فكتابات فلاسفة أوروبا القرن الثامن عشر البارزين، كجون لوك وإسحاق نيوتن وغيرهم كانت مناصرة لقضية عودة اليهود إلى فلسطين، من خلال محاولة هؤلاء العلماء والفلاسفة إيجاد تفسيرات علمية لتحقيق عودة اليهود، فقد "توصّل إسحاق نيوتن في كتابه (ملاحظات حول نبوءات دانيال ورؤيا القديس جون) الذي نشر بعد خمس سنوات من وفاته، إلى أنّ اليهود سيعودون إلى وطنهم، لا أدري كيف سيتم ذلك ولنترك الزّمن يفسره، وذهب إلى أبعد من ذلك حيث حاول أن يضع جدولا زمنيا للأحداث التي تفضي إلى

العودة، وتوقع تدخّل قوّة أرضية من أجل إعادة اليهود المشتّتين " (الشريف، 1985)، أما في الجانب الأدبي فتَمّ تناول شخصيات يهودية في كثير من الأعمال الأوربية، بنظرة جديدة غير تلك الصّورة التي استقرّت في مخيلة الأوربي، وباتت الأسماء اليهودية أكثر تداولاً من قبَل المبدعين الأوربيين " فشخصيات العهد القديم كموسى ويوشع وداود وروث ويعقوب وإستر، أصبحت أسماء شائعة، ومن السّهل ملاحظة تفضيل أنبياء اليهود على أبطال اليونان القديم، لدى قراءة مقتطفات من الأدب الأوربي في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر " (الشريف، 1985، صفحة 53)، وظهرت الكثير من المواضيع التي ضمّنت تاريخ اليهود في متونها، على غرار مسرحية (إستر) لأحد أهمّ الشّخصيات الأدبية في التّراث الغربي، وهو الأديب الفرنسي الكبير راسين (1639-1699)، والتي كتبها سنة 1689 مستمداً أحداثها من كتاب اليهود المقدّس (العهد القديم)، وسردية إستر هذه، هي قصّة بطولية توراتية تحكي عن بطولة امرأة يهودية، استطاعت أن تنقذ شعبها من مذبحة محقّقة، واتّخذ اليهود من هذه السّردية الخرافية عيداً لهم يحتفلون به كل سنة، يسمّى بعيد البوريم " فعلى الرّغم من أنّ القصّة مطروحة بوصفها تسجيلاً لأحداث فعلية، فإنّ الدّقة التاريخية لسفر إستر تخضع في واقع الأمر لجدل كبير من قبل معظم العلماء التوراتيين المُحدثين، فغياب تأكيد واضح لأيّ من تفاصيل السّفر بما نعرفه عن التّاريخ الفارسي من مصادر كلاسيكية، جعل العلماء والباحثين يستنتجون أنّ القصّة خيالية بالمثل أو في الغالب، بمعنى آخر وبصرف النّظر عن العبرة، فإنّ الخطّة المدبّرة لإبادة اليهود خيالية " (عتسمون، 2012)، كما كتب أحد أهمّ ممثلي عصر التّنوير الفيلسوف والشّاعر الألماني غوتهولد إفرايم ليسينغ (1729-1781) روايته (نathan der Weise) سنة 1779 متناولاً في إطارها العام، الحملة الصليبية الثالثة في القرن الثّاني عشر، وصوّر فيها القائد المسلم صلاح الدّين الأيوبي في صورة الحاكم القاسي والمستبد المحتلّ للقدس، وكان الهدف الظّاهر أنّ ليسينغ كتب مسرحيته لإثارة روح التّسامح بين الدّيانات التّوحيدية الثّلاث (اليهودية /المسيحية /الإسلام)، إلّا أنّ اختيار القدس كفضاء مكاني تجري على مسرحه أحداث المسرحية، إضافة إلى تحيُّز الواضح لشخصية (Nathan der Weise) عنوان العمل المسرحي، يعكسان مدى التّأثير اليهودي الصّهيوني المدعوم بدعاوى حركة الإصلاح الدّيني (البروتستانتية)، والتي استطاعت أن تؤثر في الكثير من مفكري أوربا ومثقفها " وغدت أفكار العهد القديم أكثر مصادر الإلهام لفناني وشعراء العهد الجديد، لا في إنجلترا فحسب، بل في القارة الأوربية كذلك " (الشريف، 1985، الصفحات 52-53).

أدى هذا التّحول الكبير في النّظرة المسيحية تجاه اليهود في الدّول والمدن التي تسودها البروتستانتية، إلى احترامهم ومعاملتهم معاملّة تختلف عن تلك السّائدة في السّابق، وما عادت أهمية التّوراة تنحصر في كونها كتاباً دينياً، بل باتت مرجعاً مهماً في الكتابات الإبداعية، فلمعت أسماء عديدة في سماء الإبداع الغربي من شعراء وأدباء انصرفوا أقلامهم للتغني بالصفّات والشّخصيات اليهودية، وقد فاقت حماسة البعض منهم في تأييد عودة اليهود إلى فلسطين اليهود أنفسهم، فاللورد بايرون (Lord Byron-1788/1824) جعل خاتمة أشهر قصائده [أبك من أجل هؤلاء] تتحدّث عن قضية العودة اليهودية " أيّتها القبيلة الكثيرة التّجوال وذات الصّدر المرهف، كيف ستستقرّين وتشعرين بالراحة؟ إنّ لليمامة عشها، وللثعلب وكره، وللبنشيرة وطنها، أمّا إسرائيل فليس لها إلّا القبر " (الشريف، 1985، صفحة 65).

إنّ الكنيسة الكاثوليكية لم تعتمد التّفسير الحرفي للتّصوص الواردة في التّوراة حول العودة أنّها تعني اليهود، فهم شعب ملعون طرده الله من فلسطين إلى بابل، فأوروبّا الكاثوليكية قبل عهد الإصلاح الدّيني لم تكن تعتبر اليهود هم الشّعب المختار، الذي قدّر له أن يعود إلى الأرض المقدّسة، بل كانت ترى فيهم الشّعب المارق القاتل للمسيح، ولذلك جاء تفسير نصوص العودة الواردة في التّوراة، بأنّها تعني المسيحيين فقط، فظلّ المخيال المسيحي مشبّعاً بحلم العودة إلى الأرض المقدّسة (فلسطين)، ولا أدلّ على ذلك من رحلات الحجّ التي كانت مَطْمَح كلّ مسيحي، وكانت القصص والمشاهدات الرائعة التي يرونها الحجاج العائدون من الشّرق، تثير الرّغبة لدى المسيحيين الأوربيين الآخرين لزيارتها. غير أنّ تمسّك البروتستانتين في تفسيراتهم للكتاب المقدّس بالتّصوص الحرفية، على أنّ إسرائيل المعاصرة في فلسطين، هي تأكيد للنّبوءات التّوراتية، وعلامة على اقتراب العودة الثّانية للمسيح، ممّا هبّ مزيداً من أجواء التّسامح تجاه اليهود في الأراضي

الخاضعة للنّفوذ السياسي البروتستانتي، وأصبحت فكرة ضرورة إعادة فلسطين لأصحابها العبريين اليهود شائعة في إنجلترا، هذه التّحوّلات وخاصة في الدّول البروتستانتية جاءت متزامنة، وخادمة للتطلّعات الاستعمارية التوسّعية التي بدأت تلوح في الأفق، مدفوعة بذريعة البحث عن أسواق جديدة، وأيدي عاملة رخيصة، ومواد أولية لتمويل صناعاتها ونهضتها، وتفشّت حتّى التّوسع والسيطرة بين الدّول الأوربية، متمثلة في الصّراع الأوربي حول ما يسمّى بتركة الرّجل المريض (الإمبراطورية العثمانية)، هذا التّنافس أدّى إلى بروز مشكلة أخرى أطلق عليها (المسألة الشرقية)، وهي " نزاع شديد بين الأُمّة التّركية، والأُمم التي تحت حكمها، أو التي كانت تحت حكمها من جهة، ودخول الدّول العظمى في هذا التّزاع لسدّ أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى " (داغر، 2014)، ففي الفترة التي كانت فيها الدّول الاستعمارية تفكّر وتتفاوض على تقسيم التّركة العثمانية، ظهر (محمد علي باشا) في مصر، الحال هو أيضا بتأسيس دولة عصرية وحديثة على الطّراز الأوربي، وتراوده مطامح توسّعية، هذا الظّهور أخلط أوراق الدّول الاستعمارية، ووضع حدّا ولو مؤقتا لمطامعها " ولذا تحالفت الدّول الغربيّة كلّها، بما فيها فرنسا ضدّ محمّد علي وعقدت مؤتمر لندن عام 1840 وقرّرت فيه الإجهاز عليه، فاضطّرتّه إلى التّوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق " (المسيري، البروتوكولات واليهودية والصهيونية، 2003، صفحة 96). وبعد الاتّفاق على خطة لتقسيم الإرث العثماني بين الدّول الاستعمارية، أين تمّ رسم خارطة جديدة للأُمّة العربيّة، حدّدت فيها وبدقّة متناهية مناطق النفوذ الاستعماري، حيث عقد في بريطانيا مؤتمرا عرف تاريخيا بمؤتمر لندن، ضمّ في عضويته نخبة من المفكرين وأساتذة الجامعات، وفي ختام أعماله رفع توصية عاجلة إلى رئيس وزراء بريطانيا جاء فيها " إنّ إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البرّي الذي يربط أوربا بالعالم القديم، ويربطها معا بالبحر المتوسط، بحيث يشكّل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس، قوّة عدوّة لشعب المنطقة، وصديقة للدّول الأوربية ومصالحها، هو التّنفيد العملي العاجل للوسائل والسّبل المقترحة " (الاجتماعية، 2009)، وكان هدف هذا المشروع الاستعماري هو غرس كيان غريب في قلب العالم العربي، يفصل بين ضفّتيه الآسيوية والأفريقية، ليحوّل دون وحدته ويضمن ضعفه وتفكّكه، وبإمكان هذا الكيان أن يضرب أيّ تفوق حضاري أو نمو صناعي، وسيشغله بمشكلة طويلة الأمد مستعصية على الحلّ، تستنزف طاقته وجهوده، وتبقية في تبعية للعالم الغربي الاستعماري على طول الخط، وفي المقابل تستمرّ أوربا والعالم الغربي في بناء قوّتهم الصّناعية والتّقنية، مع التّأكيد على إبقاء هذا الكيان في حاجة إلى دعم الغرب وحمايته، وسيكون هو كذلك بحاجة إليه لضمان ضعف العالم العربي والإسلامي وتفكّكه وتبعيته.

وأضحى مفهوم الصّهيونية مفهوما أساسيا في الخطاب السّياسي الغربي، ومع نجاح أوربا في بلورة مشروعها الاستعماري ضدّ العالم العربي والإسلامي، الذي حقّق أوّل نجاح له في القضاء على مشروع محمّد علي في تحديث مصر، وتفجّر الصّراع المحموم بين الدّول الاستعمارية في التّسابق من أجل الاستحواذ على الأراضي والدّول التابعة للإمبراطورية العثمانية، والذي أفرز المسألة الشرقية وفلسطين ما هي إلّا جزء من هذه التّركة، فالتقت هذه الأطماع بمسألة اليهود في أوربا، فتّم دمج المسألتين والتوصّل لحلّ نهائي للمسألة اليهودية، من خلال إيجاد كيان يتمّ تهجير اليهود إليه، وبالتالي إراحة أوربا من هذا الصّداع المزمّن، وفي نفس الوقت توظيفهم في حلّ المسألة الشّرقية، فكراهية اليهود في أوربا كان لها عمقها التاريخي، ولما لاحقت فرصة للتخلّص منهم لم يُفوّت الغرب ذلك، فلقد تأكّد لدى الدّول الأوربية الاستعمارية التوسّعية، أنّ تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم هناك، سيعود عليهم بفوائد جمة، ويقدمّ لهم خدمات مهمّة ويحيي مصالحهم في الشّرق.

ثانيا: الأدب الصهيوني والكيان القومي اليهودي

في ظلّ المتغيّرات الثّورية والتّقنية التي اجتاحت أوربا تحت مسعى التّنوير، برزت إلى السّطح حركة إحيائية إصلاحية بين صفوف الجماعات اليهودية في أوربا، متأثرة بحركة التّنوير الأوربي، أطلق عليها (الهسكالاه)، وهي كلمة عبرية تعني التّنوير أو الاستنارة، وتعبّر عن تيار فكري اجتماعي اجتاحت مجتمعات اليهود منذ القرن الثّامن عشر، بهدف إخراجهم من عزلتهم، وتأهيلهم للتكيّف مع الطّروف الدّولية المتغيّرة التي استجدّت من حولهم في العصر الحديث، من دون أن يفقدوا

هويتهم اليهودية وطابعهم المميز، وكان هدفها المعلن هو الترويج لفكرة الاندماج في المجتمعات الغربية، وإقناع اليهود بالانخراط في الحياة العامة للمجتمعات الأوروبية، وتقديم ذلك كحل لما بات يعرف بالمسألة اليهودية، لكن الغريب في الأمر أن أدباء هذه المرحلة، ومن خلال المواضيع التي طرّقوها وغنّوها في قصائدهم، أو سردوها في رواياتهم كانوا يهدفون من وراءها في الأساس إلى إشعال جذوة الحنين والشوق إلى أرض الميعاد، والتذكير بماضي اليهود المشرق والخالد بحسب زعمهم، هذا المنحى جعل بعضاً من النقاد يميل إلى تسمية هذه المرحلة باسم الصهيونية الأدبية، أي الصهيونية التي سبقت قيام الفكر الصهيوني، كما سبقت أيضاً قيام الحركة الصهيونية بمضمونها العملي والسياسي " ولن يكون من المبالغة أن نسجل هنا أن الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية، وما لبثت أن استولدتها، وقامت الصهيونية السياسية بعد ذلك بتجنيّد الأدب " (كنفاني، 2013)، فانبرى الأدباء والمبدعون اليهود في إنتاج نصوص ذات نغمة صهيونية من قبيل "يهودا ليف جوردون، وأحاد هاعام، وبيرتس سمولنيكين، الذين كانوا بمثابة حلقة الوصل ما بين عصر التنوير اليهودي (1780-1880) وعصر الإحياء القومي، ومن هنا كان للأدب العبري الحديث دور مهم في الترويج للفكرة والحركة الصهيونية وأهدافها " (علام، 2005)، فبرزت قصص وأشعار وروايات تجسّد صورة البطل اليهودي الطليعي الجديد، والمتحكّم في التقنية والمتعدّد المواهب، الخبير في الأعمال الزراعيّة والمتمكّن في شقّ الطّرق وتعبيدها، وإقامة المستوطنات وتهيتها لاستقبال الوافدين الجدد من بني جلدته، الذين أعياهم التّرحال وقهرهم التّشتّت، وأمست المهمّة الأساسيّة والرئيسيّة للأدب العبري الحديث في هذه المرحلة هي الترويج لفكرة الصهيونية، والدعوة لتحقيق أهدافها وعلى كلّ الصّعد، الاجتماعيّة والفكرية والسياسية والدينية، من خلال استخدام كلّ الأساليب السّردية والمبذرات العاطفية، لدحض التناقضات الموجودة بين الإيديولوجية الصهيونية، وما كان يؤمن به اليهود في أرض الشتات، مضمّية بذلك غطاءً شرعياً على الحركة الصهيونية.

إنّ الأدب بصفة عامة يُعتبر مرآة الشعوب، والممرّ الأساسي المعبر عمّا يختلج في عقول ونفسيات البشر، وما يعتريهم من أحاسيس متنوعة، والأدب العبري بالمفهوم العام للأدب، هو أدب بلا وطن واحد، أدب بلا حدود جغرافية، فاليهود اتّصفوا عبر تاريخهم الطويل دوناً عن غيرهم من شعوب العالم بتشتّتهم، فلم يكن لهم وطن محدّد عاشوا فيه وارتبطوا به، وأنّجوا فيه ثقافة خاصة حملت ملامح هذا الوطن، فجاء انتاجهم الأدبي والثّقافي بلا حدود جغرافية تميّزه، متنقلاً بين فلسطين وبابل والأندلس وأوروبا، ليحط الرّحال بأرض فلسطين اعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبسبب هذه الظّاهرة فقد الأدب سمة وحدة تأثير البيئة الجغرافية الموحدة، فخضع لتأثير ثقافات وحضارات مختلفة، ممّا انجرّ عنه صعوبة كبيرة في تحديد دقيق للمفاهيم المتعلّقة بهذا الأدب، فهناك الأدب العبري وهو مصطلح يطلق على الأدب المكتوب باللغة العبرية سواء في إسرائيل أو خارجها، وهذا الاصطلاح يصف انتماء لغوي فحسب، ولا يغطي الانتماء الحضاري أو القومي " ويستحسن استخدام اصطلاح (أدب العبرية) بدلا من الأدب العبري، لتأكيد الانتماء اللغوي ونفي أيّ انتماء أدبي أو حضاري " (المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، 1974)، وهناك الأدب اليهودي والأدب الإسرائيلي، والأدب الصهيوني، والتي تعدّ مصطلحات لوصف الاتجاه الأيديولوجي عند بعض الأدباء، بغض النّظر عن انتمائهم القومي أو الدّيني أو الحضاري أو اللّغوي " واصطلاح الأدب الصهيوني لا يصف شكل الأدب ولا محتواه ولا حتّى لغته، وإنّما يصف اتّجاهه الأيديولوجي العام (تماماً مثل عبارة الأدب الرأسمالي أو الاشتراكي)، ولذلك فهو بدوره مصطلح عام ومجرد ولا يعدّ تصنيفاً أدبياً " (المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، 1974، صفحة 62) والاختلاف الواقع بين هذه المفاهيم واقع سواء من ناحية التّقسيم التّاريخي إلى مراحل، أو من ناحية التّقسيم الموضوعي وفقاً لاتّجاهات الجماعات الأدبية أو المدارس، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأنّ القاسم المشترك بين مراحل الأدب العبري ومراكزه المختلفة، كان هو اللّغة فحسب، وليس وحدة الفكر أو الانتماء الحضاري.

لقد كان الأدب العبري أبرز من عبّر عن هموم وتطلّعات الجماعات اليهودية في الشتات، وكان شريكاً في بلورة وتطوير مفاهيم الحركة الصهيونية، وإقناع جموع اليهود بها، فهو بدون شكّ الجسر الذي ربط بين الصهيونية والنّفسية اليهودية،

ف" الصهيونية بمعنى أنها الحركة اليهودية السياسية باتجاه فلسطين، لم تولد في مؤتمر بال في العشرين من آب/أغسطس سنة 1897، ولكن هذا المؤتمر كان تنويجا علنيا لسلسلة من الضغوط لعب فيها الأدب الصهيوني دورا أساسيا، وإذا كانت نهاية القرن التاسع عشر هي العلامة الرسمية لولادة الصهيونية السياسية، فإن الصهيونية الأدبية بدأت قبل ذلك، وكانت في الحقيقة مادة الصهيونية الفكرية التي كتب عنها هيس وبنسكر وسوكولوف وأحادهام وهرتسل وغيرهم " (كنفاني، 2013، صفحة 29). ولقد وظفت الحركة الصهيونية المنتج الفني والأدبي، كسلاح أساسي في نشر أفكارها والرد على منتقديها، فاستخدمته على نطاق واسع، واهتمت به اهتماما كبيرا، مستخدمة إياه ليس فقط كسلاح دعاية وترويج لمظلومية اليهود وأحقيتهم في وطن قومي يجمع شتاتهم، ولا كوسيلة إقناع لليهود المترددين حول مشروعها وأهدافه، وإنما زيادة على ما سبق وظفته لتبرير عدوانها وجرائمها وتبييض صورتها أمام الرأي العام في المحافل الدولية، كما استخدمته في تزيف التاريخ وطمس كل الجرائم التي ارتكبتها في طريقها وهي تسعى لتأسيس وطنها القومي على أشلاء العزل والأبرياء " وربما كانت تجربة الأدب الصهيوني، هي التجربة الأولى من نوعها في التاريخ، حيث يستخدم الفن في جميع أشكاله ومستوياته، للقيام بأكبر وأوسع عملية تضليل وتزوير تتأتى عنها نتائج في منتهى الخطورة " (كنفاني، 2013، صفحة 10).

إن الحركة الفنية والأدبية اليهودية، والتي عيّدت الطريق أمام الحركة السياسية الصهيونية، وبتظافر عوامل أخرى برزت على المسرح الدولي أتت أكلها في نهاية المطاف، فقد كانت الاستجابة اليهودية للفكر الصهيوني سلبية وغير مرحبة في بداية الأمر، لكن مع تعمق قضية اليهود في أوروبا الشرقية، أو ما بات يعرف (بالمسألة اليهودية)، وانتشار الفكر الاستعماري الإمبريالي، وانخراط بعض المفكرين والمثقفين اليهود في هذه الحركة، أعطاهم زخما وقبولا في أوساط الجماعات اليهودية. ولقد سادت صورة نمطية عن اليهودي في أوساط المجتمعات الغربية في القرون الوسطى، تسمه بالمركر والخداع وتعاطي الرّبا ... ومن أوائل المبدعين الذين تناولوا الشخصية اليهودية في منتجاتهم الفنية، الأديب العالمي الكبير شكسبير، فقد كانت صورتهم في الأعمال الأدبية السابقة عبارة عن صورة مسطحة هزلية لا عمق فيها، حتى جاءت مسرحية (تاجر البندقية)، فأضافت إليها أبعادا جديدة، هذه الشخصية (شايлок) والتي جسدها شكسبير في مسرحيته في زمن كانت فيه المسألة اليهودية محتدمة، بسبب التوترات الدينية بين المسيحية واليهودية، والتي ترجع أصولها إلى زمن الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر، فتناول شكسبير هذه القضية ضمن المناخ المعرفي والثقافي والسياسي، الذي كان يغلف العقلية المسيحية في تلك الفترة، فجاء عمله قائما على فرضية أنّ مشكلة اليهود (المسألة اليهودية) في أوروبا تكمن في الدين اليهودي، وشكسبير هنا إنّما هو رجوع صدى لما كان يدور في أروقة السياسة وفي الصّالونات الثقافية الغربية، في أنّ الحل الأمثل لهذه المعضلة، يتمثل في تحوّل جموع اليهود إلى الديانة المسيحية، وهي ذات الدّعوة التي وُجّهت لشخصية (شايлок) في نهاية المسرحية على لسان (أنطونيو) " أنطونيو : كلُّ هذا بشرطين : أن يعتنق المسيحية مقابل هذا الفضل مني، وأن يوقّع على عقد هبة هذا في المحكمة يقضي بترك كلّ ما يملكه عند وفاته لابنته وزوجها لورينزو

الدّوق : فإن لم يفعل هذا، تراجعت عن العفو الذي أصدرته هنا منذ لحظات

بورشيا : أتقبل هذا أيها اليهودي ؟ ما قولك ؟

شايлок : أقبل " (شكسبير، 1994)، إنّ شكسبير في هذه المسرحية مثله مثل أيّ مسيحي آخر، لا ينظر إلى اليهود كأعضاء في المجتمع، وإنّما كغريباء وضيعين علقت بهم كلّ صفاة الدناءة والاحتقار " أرجوك أن تتذكّر أنّك إنّما تجادل يهوديا وهو ما يماثل وقوفك على ساحل البحر طالبا من المديّ أنّ يبلغ ارتفاعه المألوف، أو سؤالك الذئب لمّ تسبّب في بكاء النعجة على الحمل، أو تحذيرك لأشجار الصنوبر الجبلية من أن تهتزّ رؤوسها أو أن يصدر حفيف منها إذا هبت عليها عواصف السّماء .. بوسعك أن تنهض بأيّ أمر مهما بلغت صعوبته، إلّا أن ترقّق من قلبه اليهودي الذي لا يعادله قلب في قسوته، ولذا فإنني أتوسّل إليكم ألاّ تبذلوا أيّ جهد آخر، وألاّ تلجأوا إلى أيّ وسيلة أخرى، وأن تختصروا الإجراءات وتصدروا مباشرة حكمكم عليّ، حتّى ينال اليهودي غرضه " (شكسبير، 1994، صفحة 101)، قد يكون من المحتمل أنّ شكسبير استوحى هذه السلوكيات التي صبغها على شخصية شايлок، من أخلاقيات اليهود المقيمين في لندن، فقد كان

يقطن في إنجلترا عددٌ من اليهود الذين اعتنقوا الديانة المسيحية تحايلاً منهم على القانون البريطاني، الذي كان يحظر عليهم الإقامة فيها، وظلّوا محتفظين في الخفاء بأسلوب حياتهم المتميّز وبدياتهم اليهودية.

ومع مقدم النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد تطوّرات هامة، من خلال الإنتاج البريطاني الغزير، في محاولة لتعديل نظريته تجاه الشخصية اليهودية الشايلوكية المتجذّرة فيه، لصالح نظرة إنسانية تجاه الفرد اليهودي " وكانت هذه الظاهرة دليلاً على تغيّر نوعي يطرأ على العلاقة بين اليهود والمجتمعات التي يعيشون فيها، وكان يمكن أن يشكّل هذا الضّغط بوابةً نحو حلّ حقيقي للمشكلة اليهودية، لو لم يكن التّعبص الذي يعيش في أوساط يهودية معينة واقفا بالمرصاد لمثل هذه البادرة " (كنفاني، 2013، صفحة 49). ففي عام 1817 تنشر الرواية البريطانية ماريا إدجورث (Maria Edgeworth 1849/1768) روايتها [هارنغتون-Harrington]، قدّمت فيها الشخصية اليهودية المختلفة عن تلك الشخصيات النمطية التي عُرفت بها في الآداب الأوروبية، وهي تعتبر بحق بادرة مبتكرة في الأدب الإنجليزي بدأت في الانتشار والتوسع، كإرهاص لوعي عالمي يرفض العنصرية، فأبرزت إدجورث في روايتها هذه أنّ بوسع اليهودي أن يكون تاجراً مهذباً، وأستاذاً محترماً...مركّزة في عملها السردية على انتقاد الصورة النمطية الراسخة في مخيلة القارئ الغربي عن اليهودي الشايلوكي، وإحلال صورة اليهودي الطيّب مكانها، هذا اليهودي الذي باستطاعته أن يندمج في المجتمع الإنجليزي دون أية عوائق " إنّ الرواية حققت هدفها مع تقديم يهود ليسوا من صنف الشياطين ولا المجرمين " (الراهب، 1979)، وفي عام 1819 ينشر الروائي الإنجليزي الكبير والتر سكوت (Walter Scott 1832/1771) روايته [إيفهيو-Ivanhoe] والتي طرحت أيضاً الشخصية اليهودية الطيّبة العاكسة لنمو الوعي الجمعي في بريطانيا، والرافضة لكلّ المواقف العنصرية الصّادرة من قبل جماهير القراء، فلقد حاول سكوت أن يقدّم في روايته هذه علاجاً لتلك العنصرية الفجة التي اتّسم بها الكثير من أفراد المجتمع الإنجليزي، في محاولة لتقديم حلول إنسانية للمعضلات العرقية المنتشرة في تلك الحقبة، وعلى الرّغم من أنّ والتر سكوت في روايته التاريخية هاته ينقل لنا الجو العام لبريطانيا بعد الحروب الصليبية، وعودة ريتشارد قلب الأسد من الشّرق إلى بريطانيا وما لاقاه من فوضى واضطرابات، إلّا أنّ العمل أفرد مساحة سردية واسعة لحياة عائلة (ريبیکا) اليهودية ووالدها إزاك، فنكاد نلمس أنّ البطل الحقيقي لهذه الرواية هو ريبیکا، ومن خلال هذا الحوار الدائر بينها وبين والدها تتبيّن لنا التّ نظرة المتميّزة التي أضفاها سكوت على شخصية اليهودي، عوضاً عن تلك السّائدة في تلك الفترة: " قالت ريبیکا: لا تفكّر في الأمر هكذا يا أبي فنحن نستمتع أيضاً بميزات، فهؤلاء المسيحيون مع قساوتهم وظلمهم، يعتمدون نوعاً ما على أبناء صهيون الذين يحتقرونهم ويضطهدونهم، فبدون عون ثروتنا لا يستطيعون أن يجهبوا أعدادهم الغفيرة أيام الحرب، أو مسيرات انتصارهم أيام السّلم...قال إيزاك: أثق في ذلك يا ابنتي كنتقي في أنّنا سنعيد بناء صهيون، ولكن كما أمل أن أرى بأمر عيني جدران المعبد الجديد وأبراجه، أمل أن أرى مسيحياً نعم من أفضل المسيحيين يرُدُّ دينا إلى يهودي، لا خوفاً من قاض أو سجان " (سكوت، دت)، إنّ صورة الشخصية اليهودية في هارنغتون وفي إيفهيو تقريبا واحدة، فمن ناحية، ثمة المجتمع المسيحي المعادي باستثناء قلة متزايدة من المتسامحين على طراز بطلي الروايتين، ومن ناحية أخرى ثمة اليهود الباحثين عن قبول لائق في المجتمع، فكلا الروايتين جعلتا " النّقطة الحاسمة في تاريخ يهود أوروبا هي إذن رغبة اليهود في الاندماج مع المجتمعات الغربية، وضرورة اعتراف هذه المجتمعات بحقّ اليهود التاريخي في أن يكونوا مواطنين في البلدان التي يسكنونها على نحو طبيعي، وحيثما تنسجم مواقف الطّرفين، يغدو اليهود جزءاً من تلك المجتمعات، أمّا عندما تختلف، فبعضهم ينكفئ على ذاته وينقلب صهيونياً، وهذا هو أصل الصهيونية إلى حدّ كبير، إنّها ردُّ فعل وليس حركة تاريخية أصيلة " (الراهب، 1979، صفحة 28).

لقد تغيّرت الشخصية اليهودية في الأعمال الأدبية الأوروبية عموماً في مطلع القرن التاسع عشر عن أن تكون شخصية شايلوكية، ولم يكن هذا التّغيير قد طرأ نتيجة لتوسع النّفوذ اليهودي كطبقة ذات تأثير في المجتمعات الأوروبية التي كانوا يعيشون فيها فقط، بل جاء أيضاً نتيجة لنمو الوعي بالعدل والمساواة ونبت العنصرية داخل أوروبا، وبروز تيار ثقافي عصري يرفض الاضطهاد العنصري من الأساس، وعلى الرّغم من الانتقادات اليهودية الموجهة لروايتي (هارنغتون

وإيفانفو)، باعتبارهما نوعاً من التكفير والاعتذار من قبل مؤلفيهما (ماريا إدجورث و والتر سكوت) عن ما طال اليهود من احتقار وازدراء داخل المجتمعات الأوروبية، إلا أن الأقرب إلى الموضوعية هو الاعتقاد بأن كلا المؤلفين كانا تحت تأثير هذا التيار الثقافي المتنامي والمطالب بوضع حدٍ وإيجاد حلٍ لهذه المشكلة ومن منطلقات غير عنصرية، وواقع تلك المرحلة يثبت أن كثيراً من الأدباء الأوروبيين واليهود قدّموا نماذج مقبولة للشخصية اليهودية تصلح أن تكون بداية لحلّ هذه المعضلة، غير أن هذه النماذج تمّ رفضها من قبل تيار تعصبي يهودي، وأصل ضغطه لإنتاج بطل يهودي متفوّق ومعصوم " ولم يكن هذا الإصرار على تشويه المواقف ذات الدلالة، من قبل المتعصبين، إلا رغبةً في وضع أساس شخصية يهودية سياسية ترفض الاندماج كحلٍ للمشكلة اليهودية، ولذلك فقد كان المطلوب هو بطل يهودي غير البطل الرومانسي الذي جاء في هارنغتون وإيفانفو " (كنفاني، 2013، صفحة 53)، وقد استجاب الزوائي الإنجليزي اليهودي بينجامين دزرائيلي (Benjamin Disraeli - 1804/1881) للمطامح التعصبية اليهودية المتطرفة، ونقل البطل اليهودي من الشخصية الرومانسية، إلى المواقف السياسية القومية، موجهاً بذلك ضربة لكل دعاوى الاندماج، ففي سنة 1833 أصدر روايته [دافيد آلروي - David Alroy]، وكان موضوعها الأساسي النضال من أجل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، أين طرح فيها بطله الصهيوني اليهودي الرافض لكل دعاوى الاندماج " فالرواية تمثّل تقدّم دزرائيلي ليس كيهودي تائه أو كشاييلوك، وإنما كدافيد آلروي، الأسير أو أمير الأسرى الحانق على قومه، بسبب حياتهم المقعدة المذلّة، والذي يقرّر أن يعصف بلندن- بغداد، ويستعيد لإسرائيل مجلسها المبارك، والرواية هكذا تجسيد لحلم صهيوني مبكّر يركّز على العرق والدين وتاريخ العهد القديم، وتميّز القبائل اليهودية العشرة، ويستهدف إعادة تجميع اليهود في فلسطين في ظلّ مملكة أو حكومة دينية " (الراهب، 1979، صفحة 35)، فدزرائيلي طرح في روايته هاته الشخصية الصهيونية كبديل عن الشخصية اليهودية، ممّا أثار حولها الكثير من اللغط، ودارت نقاشات عن بطل هذه الرواية (سيدونيا) المشبّع بأفكار التفوق ونقاوة العرق، من منطلق أن رؤيتها الروائية تقوم على رؤية سياسية تناقض النظرة السائدة في بريطانيا تجاه الأقلية اليهودية، فقد كتب هذه الرواية بدافع حماسي أنه يؤدي رسالة مهمة تنشر الوعي بالتاريخ المأساوي لليهود، وتذكّر بالخطأ الفادح الذي ارتكبه وما تزال ترتكبه أوروبا المسيحية تجاه من يُعدّون الأصل بالنسبة لتكوينها الثقافي وخاصة الديني منه، إن أبطال دزرائيلي يتماهون مع المصالح اليهودية ويحملون عبء الوطن القومي الذي يجب أن يجتمع فيه كلّ اليهود، محقّقين بذلك عزّهم وعزّ شعهم " ليس كلام دزرائيلي على لسان سيدونيا بأكثر من إيديولوجيا سياسية تخدم أغراضاً حزبية مؤقتة. ما يهمنها هنا هو المستويات السياسية والاجتماعية ومن ثمّ الثقافية من ناحية أخرى، إنّها المصالح التي تحوّل الرواية إلى وثيقة احتجاج سياسي واجتماعي لدعم مصالح الجماعة اليهودية في بريطانيا بشكل خاص وأوروبا بشكل عام " (البازعي، 2007)، وهذا ما دفع بالرواية الإنجليزية جورج إليوت (Mary Ann (Marian) Evans - 1819/1880) إلى كتابة روايتها [دانيل ديروندا - Daniel Deronda] والصادرة سنة 1876، فقد ساهمت من خلال هذا العمل في خلق الدافع الخيالي للمشكلة اليهودية، على صورة شاب مثالي يبحث عن حرية شعبه وحقّه في تأسيس وطنه القومي، طرحت فيها المشكلة اليهودية القديمة بصيغة جديدة، جاعلة من بطلها مردخاي محاضراً صهيونياً من الدرجة الأولى، حيث رسمت له المؤلفة خطة عمل من شأنها إقناع يهود العالم بجدوى الحركة الصهيونية " ومن الجدير بالملاحظة هنا أن جورج إليوت تعرّف الصهيونية باليهودية، إنّها ترى في اليهودية ثقافة عرق محكوم عليها بالفناء إذا لم تتحدّد في إطار وجودي قومي، وفي الوضع الطبيعي لليهود وجوداً تحتويه دولة. وفي وجودهم الحالي في أوروبا كأمم غير طبيعي أو كعنصر سلبي من عناصر الطبيعة، وواضح أن وظيفة ديروندا هي قيادة اليهود في خروج جديد من أوروبا، والملاحظ أن المؤلفة لم تفكر أبداً في دعوة مواطنيها واليهود سواء بسواء للاندماج والتآلف، وكأنّها نفسها لم تقبل فكرة أن يكون اليهود مواطنين بريطانيين " (الراهب، 1979، صفحة 71)، لقد رفضت إليوت العنصرية التي صبغ بها دزرائيلي بطله سيدونيا الطامح إلى تحقيق الفوز في الشرق وفي لندن، فدفعته ببطلها مردخاي الذي يعتبر أن فلسطين هي المكان الأوحده والملائم للمّ شمل اليهود وتخليصهم من عذابات التيه، إنّها مهمة تصحيحية لصهيونية سيدونيا بطل دزرائيلي.

لقد " كانت رواية دانييل ديروندا المقدّمة الأدبية لوعده بلفور، الذي جعل إقامة دولة يهودية في فلسطين ضرورة تاريخية، والرؤية التي عبّرت عنها شخصية مردخاي اليهودي الصّوفي، هي عودة اليهود إلى فلسطين واستعادة الأرض كوطن للشعب اليهودي " (الشريف، 1985، صفحة 68)، فرواية دانييل ديروندا تعتبر بحق تمثيلاً حقيقياً للموقف الداعم للتّيار الصّهيوني، الدّاعي إلى إنشاء وطن قومي لليهود، فالبيوت جعلت من بطلها النّمودج الحقيقي للمسعى الصّهيوني في إيصال رسالة لإقناع اليهود المتردّدين وإيهامهم بأنّ الملجأ الوحيد والأمن لهم لتحقيق وجودهم وحماية عرقهم وقوميتهم، لن يتوفّر إلّا من خلال إقامة دولة لهم، لذلك اعتُبرت هذه الرواية من قبل الحركة الصّهيونية كتاباً في غاية الأهميّة، فتبنوه ووزعوه وأعادوا طبعه ونشره في أوروبا "وغزا الكتاب بمخطّطات مدرّسة البيوت اليهودية، وما إن ترجم إلى العبرية حتّى أضحي إنجيلاً صهيونياً، وفي عام 1948 وقبل أن يذوب دخان الكارثة الفلسطينية، أطلقت إسرائيل اسم إليوت على أحد شوارع تل أبيب " (كنفاني، 2013، صفحة 68)، وبعدها نشر ثيودور هرتزل [Herz Theodor - 1860/1904] سنة 1902 روايته (الأرض الجديدة القديمة) ليدفع من خلالها بطل (دانييل ديروندا) خطوة إلى الأمام، ويضعه على سكة طريق تنفيذ المشروع الصّهيوني، المتمثّل في إقامة وطن قومي لليهود، أين أسهب في روايته للحديث عن أرض فلسطين التي كانت تشوّق لاحتضان اليهود وعودتهم إليها ليصلحوها ويسكنوها، متجاهلاً في ذات الوقت الوجود الحقيقي للسكان الأصليين على أرض فلسطين، مركزاً حديثه داخل متنه الرّوائي وبأسلوب يوتوبي دُعائي على " الدّور الذي ستلعبه إسرائيل في إفريقيا وآسيا المتخلّفتين " (كنفاني، 2013، صفحة 90).

خاتمة:

إنّ الصّهيونية كانت إحدى الاستجابات اليهودية المختلفة لأزمة اليهود والمهودية في المجتمع الأوروبي الحديث، لقد كانت تهدف إلى تحديث اليهود واليهودية بشكل أو بآخر، وقد وجدت الحركة الصّهيونية أنّ الحلّ الاستعماري لمشاكل أوروبا، بما في ذلك المسألة اليهودية هو الحلّ الأمثل، ولذا وافقت ودعّمت فكرة تصدير المسألة اليهودية مع ما يُصدّر من مشاكل وسلع كاسدة إلى آسيا وإفريقيا، أو أيّ مكان آخر بخلاف أوروبا، لقد كانت هناك حاجة أوربية تتمثّل في هدفين: أولهما التخلص من الفائض البشري اليهودي، الذي بات من غير وظيفة بعد الثّورة الصّناعية والتّحديث، عبر تصديره للخارج كما كان يُفعل بالمجرمين والمنبوذين في أوروبا، على غرار ما قامت به فرنسا في الجزائر، أين استقدمت مجرّمي أوروبا وعاطليها ووطنتهم، وثانيهما خلق كيان غريب في جسم الأُمّة خدمة لأهداف الاستعمار الغربي، محقّقة بذلك هدف أسمى، وهو حلّ المسألة اليهودية بالمسألة الشّرقية في صفقة واحدة، وحقّقت بذلك الحركة الصّهيونية نجاح اليهود في الاندماج والتّعبية للحضارة الغربية من خلال التّشكيل الاستعماري الإمبريالي الغربي، بعد أن فشل اليهود في الاندماج فيها اجتماعياً وثقافياً.

فإسرائيل كدولة حدود، هي امتداد استعماري للحضارة الغربية، وتقع على عاتقها المسؤولية الأخلاقية، ليس في حماية المستعمرين فقط، بل أيضاً في حماية الحدود العسكرية والسياسية للقوى الاستعمارية الكبرى في الشّرق الأوسط أيضاً، وليس هذا إلّا صدى لما كان يرّدده هرتزل باستمرار، عن أنّ دولة يهودية في الشّرق الأوسط ستكون بمثابة حاجز أمام الهمجية الشّرقية، ودرع يحمي الحضارة الغربية. وقد اعتمدت الصّهيونية على فلسفة دعائية ذات أبعاد سياسية تقوم على أسس أيديولوجية ومعرفة تامّة بجمهورها المستهدف، من خلال العمل على تغيّير صورة اليهودي أمام الرّأي العام وانتهاج منطق دعائي مزدوج يتّجه نحو تأكيد (الشّريعة الصّهيونية)، وتشويه صورة العربي والفلسطيني بما يُخلّ بميزان القوى لصالحها تحقيقاً لأهدافها المرحلية والمستقبلية، موقنة بالدّور الرّيادي الذي يؤدّيه العمل الدّعائي في تحقيق أهدافها استناداً للتّوجهات الدّعائية للمفكرين الأوائل، فوضعت نصب عينها أنّ برامجها السياسية مهما بلغت من قوّة فهي لن تتمكن من تحقيق أهدافها من غير إسناد العمل الدّعائي، وعليه وظّفت الدّعاية الصّهيونية العديد من الوسائل في خدمة استراتيجيتها القائمة على الخداع وغسل الأدمغة، فلجأت إلى الصّحافة المكتوبة والإذاعة والتلفزيون والسّينما والأدب، هذا الأخير يعتبر وسيلتها الأساسية والرئيسية في كسب التأييد الدولي وخلق شعور جمعي مؤيّد للكيان الصّهيوني " وإذا كان الأدب العبري الحديث بصفة عامة، والشّعور العبري الحديث بصفة خاصة قد ارتبطا بحركة الهسكال، فإنّ الأدب العبري في مرحلة الإحياء الصّهيوني سار على الدرب نفسه من حيث الارتباط بالصّهيونية، وأصبح هو البوق الذي يستخدمه مفكرو وأنصار الصّهيونية لنشر أفكارهم بين الجموع اليهودية " (الشاذلي و سالم، 2004)، فلقد نشط الأدب الصّهيوني في الدّفاع عن الصّهيونية معتمداً في ذلك على فكرة المظلومية وما لاقاه اليهود من اضطهاد في الشّتات،

والعذابات التي طالهم على يد الأغيار، مع التركيز على ملازمة فكرة حنين اليهودي الدائم للعودة إلى أرض أجداده، أرض اللبن والعسل وإلى جبل صهيون وأورشليم في فلسطين.

والأسلوب الأساسي الذي انتهجه أدباء الحركة الصهيونية، هو أسلوب الإحياء القومي للوجدان اليهودي من خلال الكتابات الأدبية التاريخية التي تستقي مادتها من التاريخ اليهودي القديم، ساردة لأساطير وبطولات لشخصيات تاريخية في صور أدبية حديثة، أو صياغة أحداث الحياة اليهودية الحديثة في إطار تاريخي قديم، ينتهي بها إلى خاتمة التجمع في أرض الميعاد، كما ركز الأدب الصهيوني على مهمة إذكاء مشاعر الانتماء القومي لدى الجماهير اليهودية في مختلف بقاع العالم، مستخدماً أسلوب التخويف والإبادة، مؤكداً من خلال سرديته أنّ الأمان والاطمئنان لن يحصل عليهما اليهودي إلاّ باللجوء إلى الأسوار الحصينة داخل الكيان الصهيوني، فهو الوحيد القادر على توفير الحماية والأمن الدائم "ولذلك، فالأدب الذي أنتجته الدولة هو في معظمه أدب حرب، يعيش على مشاعر القتال والعداء والكراهية ويروي أخبار الحروب وذكرياتها" (حسن، دت).

إنّ الأدب الصهيوني القائم على الأباطيل والادّعاءات المزيفة للجغرافيا والتاريخ، وعلى الرغم من الاحتفاء والترحيب العالميّين به، وتعميمه للفكر العنصري الإلغائي، وإتخاذه منذ البدايات حتى اليوم صورة الحرب الناعمة، بات مكشوفاً للجميع، لا يختلف كُتّابه ومنظّروه عن قادة وزعماء العصابات الصهيونية التي تسعى جاهدة عبر كل ما تملك، لتكريس الوجود اليهودي وتثبيتته في أرض فلسطين، وإلاّ فكيف يدعو كاتب أو أديب إلى السلام والتعايش المشتركين، وهو يعيش في بيتٍ للاجئين فلسطيني مهجر، أو في مستوطنة بُنيت على أنقاض بلدة أو قرية فلسطينية مدمّرة .

الإحالات والمراجع:

- 1- عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية (دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة) ج1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، الكويت، 1982، ص 103-104
- 2- المرجع نفسه، ص 111-112
- 3- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ج6، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1999، ص 14
- 4- عبد الوهاب المسيري، البروتوكولات واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط3، القاهرة، 2003، ص 94
- 5- المرجع نفسه، ص 95
- 6- أنيس صايغ، الفكرة الصهيونية (النصوص الأساسية)، منظمة التحرير الفلسطينية، دط، بيروت، دت، ص 476
- 7- المرجع نفسه، ص 477
- 8- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي)، تر أحمد عبد الله عبد العزيز، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دط، الكويت، 1985، ص 55
- 9- المرجع نفسه، ص 53
- 10- جلعاد عتسمون، من التائه، تر حزامه حبايب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2012، ص 230-231
- 11- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي)، ص 52-53
- 12- المرجع نفسه، ص 65
- 13- أسعد خليل داغر، ثورة العرب (مقدماتها، أسبابها، نتائجها)، مؤسسة هنداوي، دط، القاهرة، 2014، ص 11
- 14- عبد الوهاب المسيري، البروتوكولات واليهودية والصهيونية، ص 96
- 15- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، مسخ الصورة (سرقة وتحريف تراث الأمة)، دار كيوان للطباعة والنشر، دط، سوريا، 2009، ص 116-117
- 16- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني (دراسة)، منشورات الرمال، دط، قبرص، 2013، ص 7

- 17- عمرو عبد العلي علام، الأسطورة الزائفة رحيل الصهيونية والبحث عن بديل (دراسة في الأدب العبري الإسرائيلي)، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2005، ص5
- 18- عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية (رؤية نقدية)، مطابع الأهرام التجارية، دط، القاهرة، 1974، ص62
- 19- المرجع نفسه، ص62
- 20- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني (دراسة)، ص29
- 21- المرجع نفسه، ص10
- 22- ويليام شكسبير، تاجر البندقية، تر حسين أحمد أمين، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1994، ص111
- 23- المرجع نفسه، ص101
- 24- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني (دراسة)، ص49
- 25- هاني الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1979، ص20
- 26- والتر سكوت، إيفانهو، تر ياسمين العربي، مؤسسة هنداوي، دط، القاهرة، دت، ص68
- 27- هاني الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية، ص28
- 28- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني (دراسة)، ص53
- 29- هاني الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية، ص35
- 30- سعد البازعي، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2007، ص208
- 31- هاني الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية، ص71
- 32- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية (جذورها في التاريخ الغربي)، ص68
- 33- غسان كنفاني، في الأدب الصهيوني (دراسة)، ص68
- 34- المرجع نفسه، ص90
- 35- جمال عبد السميع الشاذلي، نجلاء رأفت سالم، الشعر العبري الحديث (مراحل وقضاياها)، سور الأزيكية، ط1، القاهرة، 2004، ص12-13
- 36- محمد خليفة حسن، الشخصية الإسرائيلية (دراسة في توجهات المجتمع الإسرائيلي نحو السلام)، مركز الدراسات الشرقية، دط، القاهرة، دت، ص86